النثر الجاهلي
حضور النبوءة وهيمنة المحمول الديني

أ.د. عبدالله إبراهيم
قسم اللغة العربية –كلية الآداب
جامعة السابع من إبريل

1- **مدخل :**

لايمكن الحديث عن ((النثر الجاهلي)) الاُ بطريقة استرجاعية تخترق حاجزين أساسيين يفصلان ((العصر الجاهلي)) عن العصور اللاحقة في تاريخ الثقافة العربية – الإسلامية ، أولهما : القرآن والممارسة النبوية ، ومن ثم الصورة التي ركبت لذلك العصر من خلالهما . والثاني : التدوين المتأخر عن تلك الحقبة الذي استدعى ((بعض المظاهر الثقافية)) لذلك العصر ، وتحديداً المظاهر التي تمكنت من اختراق الحاجز الأول ، لأنها تطابقت في رؤيتها معه ، ومهما حفرت الدراسات المتخصصة في العصر الجاهلي عامة ، وفي آدابه خاصة . سعياً وراء العثور على ((حقيقة موضوعية)) لذلك العصر ، فإنها ستواجه بالحاجزين اللذين أشرنا إليهما ، ذلك إن ((الشؤون الجاهلية)) في معظمها ، أعيد تشكيلها في ضوء معايير الرؤية الدينية ، واكراهات عصر التدوين بملابساته الثقافية والسياسية والاجتماعية وبمنظوره المغاير لما كانت عليه الطبيعة الثقافية للحقبة الجاهلية . وإذا خُصص الحديث في((النثر الجاهلي)) فالأمر يزداد التباساً وغموضاً بسبب التدخل اللانهائي بين النص القرآني بوصفه نثراً وضروب النثر الأخرى التي عرفت آنذاك من جهة ، وبين الرسول بوصفه نبياً ومحدثاً وخطيباً وطائفة كبرى من المتنبئين والمحدثين والخطباء . ويزداد ذلك التدخل إذا أخذنا في الاعتبار شيوع الروح الديني والتنبؤي في الأدب النثري ، كما يدل عليه القرآن والحديث والشذرات المتناثرة التي وصلت إلينا من النثر المنسوب إلى تلك الحقبة .

copy from www.bulletin.7aprilu.edu.ly

2- النثر والرؤية الدينية : إقصاءات لاهوتية :-

يمثل القرآن القوة المركزية الفاعلة والمؤثرة في الثقافة العربية الإسلامية ، ذلك أنه المصدر الذي تنبثق عنه الرؤية الدينية للوجود ، وهو الخطاب المتعالي بنسيجه الدلالي والأسلوبي ، وتركيبه اللغوي المخصوص ، ويليه الحديث النبوي الذي يكتسب وجوده وأهميته ، ومن حيث كونه مفصلاً لذاك المجمل .

كان القرآن خطاباً لغوياً ذا محمول ديني ، وبسبب من مركزيته ، فقد أوجد تراتباً في درجة اللفظ والمعنى ، فلما كان لفظه ومعناه متعاليين ، فقد أصبح خطاباً من الدرجة الأولى تركيباً ودلالة ، ولما كان الحديث حاشية عليه ، فقد أصبح خطاباً من الدرجة الثانية ، لأن معناه يتحدر عن مصدر القرآن ، وإن كان لفظه نبوياً ، فهو يتصل به اتصالاً وثيقاً ، وإن كان دونه منزلة . وقد أفضى هذا إلى إقصاء الخطابات القائمة آنذاك ، أو دمجها في سياقات أخرى وتقويض مصادرها الإلهامية ، وأعيد توظيفها بما يخدم المركزية الدينية ، وقد احتلت – طبقاً لهذا النظام الهيراريكي – موقع الدرجة الثالثة .هذا بالنسبة للخطابات الشعرية والنثرية التي تلتزم في الأصل قواعد الفصاحة وتمتثل للرؤية القرآنية للعالم ، أما إذا أرادت أن تؤسس وجودها الخاص ، بمعزل عن مركزية الوحي ، وأن تشغل بجمالياتها اللفظية ، والدلالية بعيداً عن كل ذلك ، فلا يمكن تصور وجود أي مكان لها ، ومثال ذلك النثر السردي المتخيل الذي كان يعنى بالمغيب من الوعي الاجتماعي الذي كان يعبر عن معتقدات ورؤى تشكل في جملتها البطانة اللاشعورية للمجتمع الجاهلي ، ليس ذلك فحسب ، بل أن هذا وغيره كان يندرج فيما يمكن أن يصطلح عليه بـ ((الفضلة)) لأنه لا يسهم في خدمة ((العلم الإلهي)) .

ورد عنه الرسول ρ قوله ((العلم ثلاثة فما سوى ذلك فهو فضل : آية محكمة ، وسنة قائمة ، وفريضة عادلة)) (1) ومعنى ذلك أن ((العلم)) هو : القرآن والحديث وأحكامهما ، وما سوى ذلك فهو ((فضل)) أما هذا ((الفضل))

copy from www.bulletin.zu.edu.ly

فيبين معناه حديث آخر مؤداه أن الرسول ρ دخل المسجد يوماً ، فرأى جمعاً من الناس على رجل فقال ((ما هذا ؟)) قالوا ((يا رسول الله هذا رجل علامة)) قال ((وما العلامة ؟)) . قالوا ((أعلم الناس بأنساب العرب ، وأعلم الناس بعربية ، وأعلم الناس بشعر ، وأعلم الناس بما اختلف فيه العرب)) فقال ((هذا علم لا ينفع وجهل لا يضر)) (2) وأصبح التعبير الإبداعي ، ومنه الشعر والنثر القصصي في موقع بعيد ، لأنه مضر لقائله وسامعه في الدنيا والآخرة ، وكل ما لا يقدم خدمة تسهم في تعميق فهم الناس بالدين لا نفع فيه (3) وكان ينظر إلى ذلك التعبير بوصفه ((بدعة)) وعد كل ما لا ينهض على واقعه محددة لها علاقة مباشرة ، أو غير مباشرة بالدين بدعة ، وبذل جهد كبير لإقصائه وإقصاء مصادره الإلهامية ، ووصف بأنه ضرب من التخليط . ومن المفيد أن نقف على جانب من موقف القرآن والرسول تجاه ضرب من التخطيط . ومن المفيد أن نقف على جانب من موقف القرآن والرسول ρ تجاه ضرب من الممارسة الأدبية الجاهلية وهو ((القصص)) الذي كان يقصد به رواية الأخبار والاهتمام بها و إشاعاتها ، مع يقتضيه ذلك من تغيير في تفاصيلها بسبب تداولها.

الخبر المفيد بالدقة والصواب واليقين والاعتبار والتدبر والحسن هو القصص الذي أعلى من شأنه القرآن ، وهو القصص الذي ورد في تضاعيفه ليؤدي وظيفة تقوي من أمر الرسالة الدينية ، ومن الطبيعي أن هذه الفضاء الدلالي سيتحكم في الممارسات القصصية الأدبية آنذاك ، وسيدخل في رواية القصص أيضا ، فما وافق الرسالة فهو مقبول ، وما عارضها فهو مرفوض ، لا يسمح بروايته وأشاعته بين الناس . وفي ضؤ ذلك فقد أصبح القاص هو المتبع للأخبار والمقتضي لها بدقة ، ولابد أن تتوافر فيما يقص شروط الصواب والتثبيت والتدبر والموعظة والاعتبار ، سيقود ذلك إلى نتيجة مهمة ، وهى أن القصص أصبح اقرب إلى علم التاريخ والأخبار منه إلى الفن الإبداعي الذي لا يقوم على مثال ، والقاص أقرب إلى الأخباري . فالشروط الواجب توافرها فيه ليقص الخبر كما

copy from www.bulletin.aprilu.edu.ly

سمعه ، تماثل الشروط الواجب توافرها فيمن يحدث ، إنها الدقة والتقصي والإسناد الصحيح والمتن الصائب ، وينبغي عليه أن لا يورد خبرا لم يثبت منه وإلا عد مخلطا وذلك يخرجه عما حدده القران من شروط فيمن يقص واندمجت شخصية القاص بشخصية الأخباري الواعظ وأصبح القصص ممارسة وعظة تهدف إلى غاية دينية ولم يعرف القص والقاص إلا كذلك فى الثقافة العربية الإسلامية(4)

لم يقف الأمر عند قضية الوظيفة التي ينبغي أن تنهض بها القصص ، إنما جرى جدل لاهوتي حول أهمية وجودها في القرآن . وعدها بعض البلاغيين أحد وجوه أعجاز القرآن (5) وأقاموا الحجة على ذلك باعتبارها أخباراً عن غيوب سالفة ((وردت ممن لم يعرف الكتب ، ولم يجالس أصحاب التواريخ)).(6) وذهب النظام إلى أن ((الإعجاز في القرآن من جهة ما فيه من الأخبار عن الغيوب ، والاعجاز في نظمه))(7) وسبب ذلك أن أبرز ما يتصف به النبي ، قدرته أن يكون ((مخبراً عن المغيبات الكائنة والماضية والتي ستكون)) (8) . ويفصل الباقلاني هذا الأمر قائلا إن ((الرسول كان أمياً لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ ، وكذلك كان معروفاً من حالة انه لم يعرف شيئاً عن كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم ن ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ، ومهمات السير من حيث خلق الله آدم عليه السلام إلى مبعثه)) ولما كان الأمر مستحيلاً إلا عن تعلم ، وهو لم يكن كذلك كما يقول الباقلاني، وجب إلا بتأييد من جهة الوحي)) (9) . وقد حذا السكاكي حذوه في القول أن اشتمال القرآن على القصص أحد وجوه أعجازه .(10) لم ينظر إلى القصص في القرآن ألا باعتبارها قصص موعظة وعبرة وضرب مثل وتقديم نصح وإذا ظن أحد ، كما يقول أبن الأثير إلى أنها من ((الحكايات والأسمار)) فقد (تمسك من أقوال أهل الزيغ بمحكم سببها ، حيث قالوا : هذه أساطير الأولين أكتتبها))(11) . وأهل الزيغ هؤلاء الذين ينظرون إلى قصص القرآن بوصفها حكايات سمر ، يضعهم السخاوي على ((شفا جرف هار)) (12) . وكل هذه أسباب وجهت رواية القصص القديم وجهة معنية ، نبذت

copy from www.bulletin.zapritu.edu.ly

فيها المرويات والأسمار التي لا توافق الهدف الاعتباري الذي سعى القرآن لترسيخه في خطاب . وسنجد أن الرسول يعمق هذا الهدف إلى أقصى درجة ممكنة .

عبر الرسول عن موقفه تجاه القصاص والقصص في العصر الجاهلي بموقفين متباينين تبعاً لتباين علاقة القاص وقصصه بالرسول . وعرض هذين الموقفين ممثلين بنموذجين لقاصين جاهليين يكشف معيار الرسول المتبع في تحديده موقع القاص وأهمية قصصه . وسيكتشف لنا عرض هذين الموقفين نوع القصص والمرويات التي أُقصيت ولم يعد لها ذكر في المدونات اللاحقة ، ونوع القصص التي استأثرت باهتمام الرسول ، واخترقت الحاجز الديني ، واكتسبت الشرعية الكاملة ، بوصفها مرويات لا تتعارض وأهداف الدين الجديد ، ولأنها قبل كل شيء امتثلت تماماً للرؤية الدينية .

النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن مناف بن عبدالدار بن قصي ، القاص الجاهلي القرشي المعاصر للرسول والمتصل به نسباً ، عاشر الأحبار والكهنة ، وحصل على قدر جليل من العلوم القديمة ، واطّلع على الحكمة ، ورحل إلى فارس ، فتعلّم ضرب العود والغناء واطّلع على الأخبار وتشبع بالحكايات ، وقدم إلى مكة في الوقت الذي كان الرسول ينشر فيها رسالته ، فكان النضر يحدث أهل مكة بأخبار الفرس واليهود والنصارى ، ولم يتردد في حضور مجالس الرسول التي كان يعظ فيها المكيين ويحذرهم مما أصاب الأمم الخالية . وما أن يفرغ الرسول من وعظه وينصرف ، إلاّ وينهض النضر بينهم قاصاً عليهم أخبار ((رستم واسفنديار الفارسية)) . ومخاطبهم قائلاً ((ما محمد بأحسن مني حديثاً وما حديثه إلاّ أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتُها)) (13) . وكان التماثل بين الأخبار التي يوردها الرسول والنضر عن الأمم القديمة ، يؤخذ من قبل المكيين على أنه تطابق في الخبر ومصدره وغايته ، ولم يتشكّل وعي للتمييز بين القصص القرآني وقصص النضر ، مما كان يحدِثُ مزيداً من اللبس في نشر الرسالة الدينية آنذاك ،

copy from www.bulletin.zu.edu.ly

وبخاصة أن الإسلام في أول عهدِهِ ، ولم تتضح بعد السياقات الأسلوبية والدلالية للقصص القرآني . وكان ظهور قاص يؤدي دوراً مماثلاً لدور الرسول في مخاطبة عامة الناس ، يعمل على تقويض أمر الرسالة في مبتدأ أمرها . ولهذا وصف النضر بأنه كان((أشد قريش في تكذيب النبي))(14). فإذا أخذنا في الاعتبار أن ظهور النضر كان في الفترة التي وجهت فيها للرسول تهم كونه شاعراً أو كاهناً أو ساحراً ، فإن إضافة تهمة كونه قاصاً أمر يعقّد الوضع أكثر مما كان عليه ، ليس هذا فحسب ، إنما يضاف إلى ذلك ، أن الرسول إذا كان قد أفلح في رد تُهم المتّهمين بناء على بعض الاختلاف في أساليب الخطاب ، كالاختلاف مثلاً بين الشعر والنثر القرآني . أو بين الآيات وتمتمات السحرة ، وبعض أسجاع الكهان ، فإنه واجه صعوبة في إفهام المكيين بالفوارق بين ما يورده من أخبار قديمة وما يورده النضر منها ، ذلك أن التماثل في الأغاب كان قائماً في موضوعات الأخبار وأساليبها النثرية بين الاثنين ، ومن الواضح أن النضر كان يسبب حرجاً للرسول لا يمكن مقارنته بأي حرج آخر ، ولهذا تجرد الرسول للرد عليه ، كما لم يتجرد لغيره ، فقد نزلت بحقه ثماني آيات قرآنية ترد عن الرسول التهم التي وجهها النضر إليه ، منها قوله (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) - الفرقان –5 . وقوله (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) -القلم – 15 – والمطففين – 13 . وحسب ابن عباس (15) فإن الآيات التي نزلت بحقه دليل على الضرر الذي ألحقه بالرسالة ، وواحدة منها أنذرته بالويل والثبور وسوء العافية والعذاب الأليم ، وهو ما آل إليه مصيره . قال تعالى (وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(7) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) - الجاثية 7، 8 – الذي حصل النضر فيما بعد ، يطابق نبوءة سورة ((الجاثية)) فقد وقع أسيراً بيد الرسول في معركة بدر ، وكان على رأس لواء من قريش ، فأمر الرسول أن يقتل صبراً أي أسيراً ، ونفذ أمر القتل فيه مباشرة على بن أبي طالب ، وكان أول أسير يقتل صبراً في الإسلام(16) .

copy from www.bulletin.aprlu.edu.ly

ما الذي يمكن استخلاصه من هذه الواقعة ؟ إن الخلاصة الأساسية هنا تتمثل بما يأتي : إذا أقيست الأمور بنتائجها في القضايا المتناظرة الخاصة بالتهم التي وجهت للرسول ، مثل : الكهانة والسحر والشعر والقص . فإننا نجد أن موقف الرسول كان أشد قسوة على القاص من غيره ، فثمة ثلاث درجات متتالية في موقفه تجاه من شك في نبوته ، فقد عفا عمن سحر ، وأهدر دم من هجاه شعراً ، وقتل القاص وهو أسير حرب (17) . إن القاص المغاير في منظوره للرؤية التي عبر عنها الرسول كان يمارس ضغطاً كبيراً على الرسالة الدينية ، وتبعاً لهذا فقد وصف النضر بأنه كان ((شديد الأذى للإسلام والمسلمين)) (18) . تميم بن أوس الداري وفد إلى الرسول من الشام ، وأسلم ، وصحب الرسول في غزواته ، وكان مقرباً إليه يحدثه بأحاديث الأولين وأخبارهم ، فروى الرسول عنه ثمانية عشر حديثاً. وفي هذا يقوم الرسول عن تابع . ولقد اهتم الرسول بتميم وأبرز ما رواه عنه أمام جمع من المسلمين قصه ((الجساسة)) التي رواها تميم له ، ومؤداها أن تميماً وصحبه ركبوا سفينة في البحر ، وكانوا ثلاثين رجلاً ، فلعب بهم الموج شهراً فأرفوا في إحدى الجزر ، وخرجت إليهم دابة مغطاة بالشعر ، لا يعرف جنسها ، تدعى ((الجساسة)) وأخبرتهم أن رجلاً في الدير الكائن في الجزيرة ينتظرهم ويصلوا إليه ، فإذا به إنسان عظيم الهيكل وقد كبل جسمه بالحديد فيخبرونه خبرهم ، فيسألهم عن نخل بيان وبحيرة طبرية وعين زغر (= بلدة في الشام) ثم يسألهم عن الرسول هل خرج من مكة ونزل يثرب ، فلما يجيبونه عما سأل يخبرهم أنه المسيح الذي أوشك أن يؤذن له في الخروج ، وأنه سيطوف الأرض ومدنها ، إلا مكة والمدينة فهما كما يقول ((محرمتان علي كلتاهما ، كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحد منها ، استقبلني ملك بيده السيف صلتاً يصدني عنها ، وأن على كل نقب منها ملائكة يحرصونها)) (19) . وقد وافقت هذه القصة ما كان الرسول يحدث به المسلمين عن قصص الدجال وابن الصياد ، ومع أن قصة ((الجساسة)) ذات منحى خرافي فإنها وجدت لها مكاناً بارزاً . ففضلاً عن أنها

copy from www.bulletin/apriu.edu.ly

كانت توافق أحاديث الرسول آنذاك ، فإن عنصر النبوءة فيها جعلها تأتي دليلاً على نبوة الرسول ، وظهوره قبل أن يظهر ، فهي من هذه الناحية تدعم حقيقة النبوءة ، وسنجد أن عنصر النبوءة مظهر شبه ثابت في الخطب الجاهلية . فقد وصلت إلينا تلك الخطب التي تشير بوضوح إلى قرب ظهور الرسول وبعثه . وهو الأمر الذي يفسر حرص الرواة على رواية هذا الضرب من المرويات التي تندرج في خدمة الدين ، وتُسهم في تثبيت النبوءة . وقد أفضت هذه المعطيات التي كان يوفرها تميم الداري للرسول من مرويات وأخبار إلى تثبيت موقعه بوصفه رائداً للقصص الإسلامي ، بعد أن آمن بالإسلام وتصدر بذلك تاريخاً فئة القُصاص ، وبدأ رسمياً القص في مسجد الرسول بالمدينة .

يكشف لنا الموقفان المنتخبان عن مجموعة من المواقف الخاصة بوجهة نظر القرآن والرسول في قضايا الإبداع الأدبي ، أن كل ما لا يتوافق والرؤية الدينية لا يمكن روايته أو قصه . وأن كل خبر يمكن أن يسهم في تقوية الرسالة الدينية والرسول ، سواء بالإعلان المباشر ، أو الإيحاء ، فليس ثم ما يوجب حجبه كائناً ما كانت صفته وصيغه وأسلوبه وموضوعه ، سيشمل حتى القصص المكتوب إذا تعارض والروح الإسلامية ، التي بدأت تترسخ في شتى مجالات الحياة ، فإذا أُخذت الأمور ، كما هي ، فأن قول النضر بن الحارث بأنه كان يكتتب قصص الأوليين ، يعد إذا ثبت دليلاً على أن كل ما نسب إليه قد طُمس وأُقصى ، لموقفه الذي بيناه من الإسلام ، فقد قطعت أية نسبة ممكنة بين هذا القاص والمرويات التي كان يروونها في مكة ، ولم يبق إلاّ موقفه المناهض للإسلام دليلاً على معارضته الرسول ، لقد جرد الراوي من مروياته ، ووضع في فئة الضالين المؤذين للإسلام ، فيما دفعت قصصه ومروياته إلى الوراء لتُحجب ، فلا يراد لمثل تلك المرويات أن تدخل الذاكرة لأنها اقترنت براوٍ لم ((يوفق)) في خدمة الدين ، وعلى العكس من ذلك فإن مرويات تميم الداري وجدت لها صدى طيباً ومكانة مرموقة في نفس الرسول والمدونات فيما بعد مع أنه ليس لدينا إشارة إلى أنها كانت مكتوبة . وينقلنا

copy from www.bulletin.aprilu.edu.ly

كل هذه إلى قضية التدوين التي تمثل الحاجز الثاني الذي كان على المرويات الجاهلية أن تعبره لتصل إلى الأجيال اللاحقة .

3- النثر وعصر التدوين : إقصاءات تاريخية

اختلف المؤرخون بشأن تدوين الآثار والمرويات العربية ، وطال الاختلاف كل شيء بما فيه المرويات الدينية المنسوبة للرسول ، فمعلوم أن القرآن كان يدون تباعاً في زمن الرسول ، وأنه جمع في عهد خلفائه الأول ثم صدر كاملاً مرتباً بصورته المعروفة الآن في زمن الخليفة عثمان بن عفان ، وقد بتّ بهذا الأمر على تلك الصورة لأسباب دينية محض ، بيد أن حاشيته ، وهو الحديث فقد جرى عليه ما جرى ، شأنه في ذلك شأن أي مرويات ظهرت في ذلك العصر ، فإذا أخذنا مثالاً على ذلك ، سيرة الرسول واضعين في الاعتبار الأهمية الاعتبارية والدينية والتاريخية للشخص الذي تدور حوله . فإن أولى رواتها وهما اثنان يشكلان الطبقة الأولى من طبقات رواة السيرة النبوية : عروة بن الزبير وأبان بن عثمان قد توفيا على التوالي في عامي 94 هـ و105 هـ . قبل أن يضعا مادتها بين يدي الزهري الذي توفي عام 124هـ وموسى بن عقبة الذي توفي عام 141هـ . وإلى هذين الآخرين تعزى بلورة الإطار العام للسيرة شفاهياً ، وهي المادة التي وصلت إلى ابن إسحاق المتوفى عام 151هـ والذي له الفضل في تثبيت مادة السيرة بالصورة التي لا تختلف كثيراً عما وصلت إلينا بتهذيب ابن هشام المتوفى 213هـ (20) . ومع كل هذا فليس لدينا دليل يؤكد اهتمام هؤلاء وغيرهم بالرواية الأدبية المحترفة ، ذلك أن الأخبار حول الرواية والتدوين تبدأ بالتواتر مع نهاية القرن الأول ، هذا بالنسبة لأحاديث الرسول وسيرته ، فإذا أخذنا أهمية هذين الموضوعين في تاريخ الإسلام واستئثارهما بالأهمية ، رجح أن تدوين المرويات الأخرى قد تأخر إلى وقت لاحق . لايمكن التثبيت الدقيق منه ، لأن كل شيء كان يسبح في فضاء الشفاهية اللامتناهي .

copy from www.bulletin/aprlu.edu.ly

لقد شُغل التدوين بالقضايا التي ظهرت في عصره ، ومن الطبيعي أن يدون المدونون المرويات المقبولة والمتداولة في عصرهم ، ويهملون كل ما يخالف ذلك . ولما كان عصر التدوين – ولنقل على سبيل التجوز القرن الثاني الهجري بعامة – مختلفاً في مشكلاته السياسية والاجتماعية والروحية عن العصر الجاهلي ، ناهيك عن اختلافه عن حقبة صدر الإسلام نسبياً ، فإن كثيراً من المرويات التي استلهمت العصر الجاهلي واستثمرت معطياته القبلية والدينية ، لم تجد مكاناً في مدونات عصر التدوين في ظل المؤسسة الدينية – السياسية التي لها منظورها وتصوراتها الخاصة .

4- النثر : إشكالية النشأة

يعزو الجاحظ إلى الرقاشي القاص والخطيب والسجاع قوله بغزارة النثر العربي القديم استناداً لما أورده على لسانه من أن ((ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره)) (21) وهو قول يؤكد في الوقت نفسه ضياع معظم ذلك المنثور . بيد أن أمر البحث في نشأة النثر العربي القديم لم يلفت اهتمام القدماء ، إلاّ شذرات عابرة وردت في سياق لا يمكن التحقق من واقعها التاريخي ، لأنها تقدم وجهة نظر أكثر مما تسعى لإقرار حقيقة تاريخية . وإن كان مؤداها يطابق النظر العقلي ، ويتفق مع التصور التاريخي لتشكّل الأنواع الأدبية . قال ابن رشيق ((كان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعرافها ، وذكر أيامها الصالحة ، وفرسانها الابجاد ، وسمحائها الأجواد ، لتهز أنفسها إلى الكرم – وتدلّ أبنائها على حسن الشيم ... فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام ، فلما تم لهم وزنه ، سموه شعراً ، لأنهم شعروا به ، أي فطنوا)) (22) ويذهب هذا المذهب كاتب آخر هو النهشلي ، فيقول على لسان بعض علماء العربية أن ((أصل الكلام منثور ... ولما رأت العرب المنثور يند عليهم ، وينفلت من أيديهم ، ولم يكن لهم كتاب يتضمن أفعالهم ، تدبروا الأوزان والأعاريض

copy from www.bulletin.apriu.edu.ly

فأخرجوا الكلام ، أحسن مخرج بأساليب الغناء ، فجاءهم مستوياً ورأوه باقياً على مر الأيام فألفوا ذلك وسموه شعراً)) (23)

يفهم من ابن رشيق والنهشلي أن الكلام العربي ، في أول أمره ، كان منثوراً ، وأن سببين اثنين دفعا العرب لتطوير بعضه إلى شعر . أولهما : حاجتهم إلى التغنّي بمكارمهم ، وذلك لا يكون إلاّ بأقوال شعرية تنتظم في أعاريض تمنح تلك الأقوال تأثيراً في أثناء الإنشاد . وثانيهما : أن المنثور كان يفلت منهم ويند عليهم ، ويضيع من بين أيديهم فلا تحفظه ذاكرة ، ولم يكونوا قادرين على كتابته لعدم توفر إمكانات الكتابة ، الأمر الذي دفعهم إلى تدبر نظم إيقاعية تيسر لهم حفظ الكلام ، فاجترحوا الأوزان والأعاريض التي تقوم مقام الكتابة في النثر ، فتؤدي وظيفة خزن الكلام وحفظه ، لأنه سيكون منظوماً في أوزان تسهل إذا روعيت في الإلقاء ، استدعاء الكلام . وبظهور تلك الأعاريض تحول نمط من الكلام من النثر إلى الشعر ، ويصعب القول أن تلك الأعاريض ظهرت فجأة بوصفها لحظة انتقالية حاسمة في تاريخ القول الأدبي ، فلابد أن تكون تطورت عن نظم إيقاعية أقل انضباطاً . وأنها صقلت بالممارسة والتجريب إلى أن اتسقت فيما يعرف بالأوزان الشعرية المعروفة . فإذا عرضنا الأدب العربي لوجهة النظر هذه ، وعالجنا الأمر بروية تاريخية ، فإن الصيغة الأسلوبية التي تطورت عنها الأعاريض لا يمكن إلاّ أن تكون ((السجع)) (24) . فهي صيغة قولية شفاهية شبه موزونة ، استأثرت بمعظم ضروب التعبير النثري في العصر الجاهلي ، واعتمد عليها القرآن بوصفها أكثر الصيغ تواتراً فيه وهيمنتها في الخطاب القرآني دليل على اطرادها في ضروب التعبير النثري الأخرى ، وعن الصيغة السجعية ظهرت الأعاريض البسيطة التي يعد ((الرجز)) أكثرها وضوحاً .

كان بروكلمان قد أكد أن أقدم القوالب الفنّية العربية هو السجع ، أي النثر المقفى المجرد من الوزن ويضيف أن تلك القوالب ترقّت إلى الرجز ، ومن الأخير نشأت أبحر الشعر العربي ، وفي إشارة واضحة منه إلى اقتران السجع بالنثر

copy from www.bulletin.zopulu.edu.ly

الديني ، قال : إن السجع هو القالب الذي كان يصوغ العرافون والكهنة فيه كلامهم وأقوالهم (25) ، ويدعم هذا الرأي ما قاله ((غولد زيهر)) من أن السجع كان أسبق شكل من أشكال التعبير ، وهو يسبق الأراجيز والقصائد وأن الرجز تطور له ، وقد شاع استعماله في الخطابة والعبارات ذات المحتوى الديني الميتافيزيقي (26) .

5- النثر : استبداد السجع

استبد السجع بالتعبير النثري الجاهلي ، وهذه الصيغة الأسلوبية تفرض على المتكلم تقطيعاً متتالياً لمضمون كلامه يتناسب والفقرات اللفظية المسجعة التي غالباً ما تكون قصيرة ، مسبوكة في قالب أسلوبي حاد النهايات ، يبرز التعسف واضحاً في بعض فقراته حينما تقحم فكرة في سلسلة من القوالب المتناظرة بحيث لا يسمح للمعنى أن يفيض خارج تلك الأطر المحددة ، الأمر الذي يستدعي تقسيم محتوى الخطاب على تلك القوالب بما يضمن نوعاً من التوزيع المتناسب للفكرة بينها . وبالطبع فإن كل هذا يقيد إمكانية الاسترسال والتعمق والإفاضة والإحاطة بجوانب الفكرة التي يراد التعبير عنها ، وفي هذا نجد أن النثر المسجع يشعر المتلقي بأن سياقاته الدلالية غير مشبعة ، ويكتشف الغموض بعض المقاصد فيها ، وكأن الكلام عبارة عن نبذ مناثرة انتظمت في قوالب متراصة ، ومتسلسلة تفتقر إلى التنوع الذي يعد أساساً للإشباع الدلالي في الخطاب الأدبي .

أثير جدل متشعب على حول موقف الرسول من السجع ، استناداً إلى تفسيرات متباينة لحديث نُسب إليه في هذا الموضوع ، والحكاية التفسيرية التي تشكل الإطار الذي ينظم الحديث تدور حول امرأتين اختصمتا فيما بينهما فضربت إحداهما الأخرى ، وكان أن أسقطت المضروبة جنيناً ذكراً كانت حبلى به ثم توفيت ، واختلاف أهل المرأتين فيما بينهما إن كان يتوجب على أهل المرأة القاتلة أن يدفعوا أيضاً دية الجنين فرفع الأمر إلى الرسول ، فقضى بوجوب دفع دية الجنين . وهنا انبرى ولي المرأة القاتلة معترضاً ((أندي من لاشرب ولاكل ،

copy from www.bulletin7april.edu.ly

والاصاح فاستهل ، فمثل ذلك يطل)) . وهنا تتضارب الروايات في نص تعليق الرسول على اعتراضه ، ففي رواية قال له ((أسجعاً كسجع الكهان)) (27) وفي أخرى ((أسجع كسجع الجاهلية))(28) . ولا يعرف بالضبط السياق الذي ورد فيه قول الرسول ، فمن الممكن أن اعتراض الرجل على حكمه قد أغضبه ، وأنه عبر عن ذلك الاعتراض بصيغة سجعية ، الأمر الذي دعا الرسول للتعليق بقول يؤدي أكثر من دلالة . ولا يرى' أبو هلال العسكري وجهاً لذم السجع بإطلاق في كلام الرسول ، فمقصده أن الرجل المعترض على حكمه ، اتبع أسلوباً متكلفاً في اعتراضه ، يماثل أساليب الكهان ، فالمذموم هنا تحديداً هو سجع الكهان ، وليس السجع بإطلاق ، ولو كرهه الرسول لقال ((أسجعاً)) ثم سكت (29) ويؤكد هذا المعنى القلقشندي ، بقوله أن ليس ثمة دلالة على كراهة السجع في كلام الرسول ، فما كره إنما هو وجه المشابهة بين كلام الرجل وسجع الكهان لما فيه من التكاف (30) ، فيما يمكن تلمس وجه الإكراه للسجع بإطلاق في كلام الرسول إذا أُخذت الرواية الثانية للحديث . ويعلق أبو هلال العسكري على ذلك بقوله ((كل هذا يؤذن بفضيلة التسجيع على شرط البراءة من التكلف والخلو من التعسف)) (31) . وقد اطرد استخدامه في القرون اللاحقة ، فأصبح شائعاً في التآليف الأدبية النثرية ، وخلال العصور الوسطى ، كان السجع أبرز خصائص النثر العربي في الرسائل والمقامات وكثير من التآليف الأخرى .

كان السجع القرآني هو الأخر مثار جدل مماثل ، وقد وجهت قدسية القرآن ذلك الجدل توجيهاً محدداً كان في أصله لاهوتي . وسعى البلاغيون وبعض النقاد إلى تأويل الخصائص الأسلوبية القرآنية بما لا يجعلها مقترنة بمصطلح ((السجع)) واستبدلوه بمصطلح ((الفاصلة)) . وجمعها ((الفواصل)) تنزيهاً للكلام الإلهي عن أن يتضمن سجعاً ، لأن السجع في اشتقاقه اللغوي متصل بسجع الحمام .

copy from www.bulletin.7aprilu.edu.ly

كان الموجه الأساسي لهذا الجدل هو تصور البلاغيين والنقاد الذين عالجوا هذا الموضوع بعدم وجود صلة للمشابهة بين الكلام الإلهي والبشري ، الأمر الذي أفضى إلى فرض تفسيرات متعددة للإعلاء من شأن الخطاب الإلهي في ميادين يعد ذلك الإعلاء فيها نوعاً من الإساءة الضمنية لذات الخطاب ، إذاً ليس ثمة تعارض بين أسلوب التعبير ومصدره ، فتوصيف الأسلوب القرآني يندرج في معاينة الخصائص الفنية فيه وليس في الشك بمصدره . أما ما شاع عن موقف الرسول منه ، والتأويلات المختلفة حول ذلك ، فيمكن إرجاعه إلى قضية أخرى وهي أن الرسول وجد نفسه متماثلاً مع كثير من أصحاب الأساليب الأدبية الشائعة آنذاك مثل القُصاص والكهنة والشعراء ، فهو شأنهم كان يستثمر معطيات الأسلوب الشائع في عصره ، إلاّ أنه وجد نفسه أيضاً متعارضاً في الرسالة الدينية معهم ، الأمر الذي استدعى بذل جهد كبير لأن يظهر مختلفاً عنهم في رؤيته وتصوراته وفي أسلوبه إذا اقتضى الأمر . ومن الواضح أن مهمته في السعي إبراز التعارض الأسلوبي بينه وبين المسجعين كانت أصعب المهام وذلك أن السجع قد ترسخ أسلوباً دينياً لا يمكن لرسالة دينية أن تتجاوز أمر الاستعانة به للتعريف بنفسها ، ونشر تعاليمها والتأثير في أتباعها .

6- النثر الجاهلي : حضور النبوءة والحكاية والتفسيرية

تبين لنا في تضاعيف الفقرات السالفة أن كثيراً من المرويات النثرية الجاهلية قد حجبت خلف حاجزي القرآن والتدوين ، وتحديداً طمست لأنها تتعارض مع الرؤية الدينية ، ومع المؤسسة الدينية التي وجهت التدوين إلى الاهتمام بما لا يتعارض وجملة القيم الأخلاقية والروحية التي جاء بها الإسلام ، ومن الواضح أن تلك المرويات التي أسقطت وأبطلت بوصفها حوامل لتصورات مخالفة للإسلام ، بعث بعضها في القرون اللاحقة فوجدت لها مكاناً في التواريخ وكتب التفسير والأدب مثل ((الإسرائيليات)) و ((أوابد العرب)) وقد كُيفت طبقاً لرؤية لا

copy from www.bulletin.apriu.edu.ly

تتعارض مع الرسالة الدينية . الأمر الذي يكشف قدرة المرويات على التكيف ن وإعادة إنتاج ذاتها تبعاً لتغير البنى الثقافية التي تحتضنها . لم يصل إلاّ شذرات متناثرة من الخطب ، ونثر الكهان ، والوصايا ، والأمثال ، وغير ذلك مما لا يحتمل إمكانية الاستبطان العميق للذات الإنسانية ' لأن خصائصه النوعية لا توفر له مجال التعبير متعدد المستويات ، والإيحاءات عن اللاوعي الجماعي . فيما أُسقط الأكثر أهمية ونقصد به (المرويات السردية) . بالنسبة إلى تلك الضروب من النثر الجاهلي فقد عرضت ، لإكراهات واضحة .

copy from www.bulletin7april.edu.ly

6- 1- الخطابـــة -

تعد القطع النثرية الخطابية أبرز ما ينسب إلى العصر الجاهلي ، وهي ضرب من الكلام البليغ يلقيه رجل عظيم نابه الشأن في جمع من الناس ، وأهم ما تقتضيه الإقناع . وأصولها ثلاثة : إيجاد المعاني الجديرة بالإقناع من الأدلة والآداب ، والتنسيق على نظام واحد من أحكام الربط ، والترتيب والتعبير الذي يراعى فيه حالة السامع (32)

اختصت الخطب الجاهلية التي وصلت إلينا بالحث على الصلاح والتحضيض على التبار والتعاطف ورفض التباغض والتقاطع ، وصلة الرحم ورعاية الذمم (33) وهي الموضوعات ذاتها التي دعا إليها الإسلام . والوقوف على أبرز خطباء الجاهلية وهو قس بن ساعدة الأيادي ، يكشف جملة من الأهداف التي تحققها الخطبة . والأكثر من ذلك ، فإن شخصية هذا الخطيب والأخبار حوله ، ومضمون خطبته التي سنوردها بعد قليل ، تبين لنا الإسقاط السحري للذهنية الشفاهية وهي تعيد إنتاج المرويات دون مراعاة لشروط الرؤية التاريخية بحيث تدمج شذرات من الوقائع في سياق أسطوري متخيل يصعب التثبت منه . ويكشف لنا مثال قس بن ساعدة أيضاً طبيعة الصورة التنبؤية التي ركّبت له ولغيره من خطباء الجاهلية ، بما يجعل الخطبة تندرج في خدمة الدين ، فإذا أخذنا في الاعتبار

إسناد راوية أشهر خطبة إلى الرسول ، فإن البعد الاعتباري لهذه الشخصية يصبح غاية في التأثير . ويعبر عن جملة هذه الأفكار قول الجاحظ من أن قساً له ولقومه فضيلة ليست لأحد من العرب ، لأن الرسول روى كلامه وموقفه على جمله بعكاظ (= نذكّر هنا بما كان قد رواه الرسول من أحاديث تميم الداري) ، وعجب من حسن كلامه ، وأظهر تصويبه ، وهذا إسناد تعجز عنه الأماني ، وتنقطع دونه الآمال، ويبدو أن الرواية الشفهية ألحقت كثيراً من الإضافات إلى تلك الخطب ، وأقصت كثيراً منها في الوقت نفسه . ولعلّ أبرز الإضافات تتمثل في تضمن النبوءة بظهور الرسول ، ويبدو أن هذا الجانب هو الذي أعلى من قيمة هذه المرويات . ففي خطبة أخرى منسوبة إلى أبي طالب ، قالها حين خطب الرسول خديجة ، وفيها قدم وصفاً لسلسلة نسب محمد وموقعه في قومه وأفضاله وعدله ، وختم خطبته قائلاً ((وله نبأ عظيم وخبر شائع)) (34) . ويطرد أمر التنبؤ ، والتدشين لظهور الإسلام لدى خطباء آخرين .

تكشف لنا النماذج التي وقفنا عليها شيوع النفس الديني واطراد موضوعة النبوءة ، وتمهيد الأمر للرسالة الإسلامية . وبغض النظر عن أمر الوضع الذي يلازم المرويات الشفاهية بوصفها أمراً طبيعياً ، فإن الموجه الديني أثر في إعادة إنتاج كثير من الخطب بما يوافق رؤيته ، وبما يخدم توجهاته الاعتبارية والوعظية والأخلاقية ، وعموماً فالخطبة الجاهلية تندرج في سياق النصوص التي تؤدي وظيفة دينية في نهاية المطاف ، وفي هذا تلتقي مع الهدف الأساسي الي تهدف إليه رسالة الدين .

2-6 نثر الكهان

copy from www.bulletin.aprlu.edu.ly

استأثر ضرب آخر من النثر باهتمام طائفة من الكهان والمتنبئين والمتعبدين في العصر الجاهلي . ونسب إليهم لأنه كان الوسيلة المعبرة عن مقاصدهم وأفكارهم ، ويبدو أن جملة الظروف الثقافية القائمة آنذاك ، قد دفعت هذا النوع من النثر إلى مقدمة أنواع النثر الجاهلي ، لأنه ارتبط بالنظم الدينية التي كانت قائمة آنذاك . ومن ناحية منطقية فإن الإسلام جب مضمون نثر الكهان وأساليبه السجعية ، ولكن إذا نظر للأمر من ناحية واقعية ، فأن واقع الحال يكشف أن جوهر الرسالة الإسلامية والأسلوب الذي جاءت فيه ، لم يكن يتعارض مع نثر الكهان ، ذلك أن الموضوعات التي كانت تتواتر فيه هي إجمالاً أخلاقية وعظية تتخللها ضروب من التأويلات الغامضة ، أما أساليبه فيغلب عليها الأسجاع التي تماثل إلى حد ما الصيغ السجعية التي نجدها في الخطب والنصوص الدينية . ومن المحتمل أن أصل التعارض كان قائماً في الوظائف التي يقوم بها كل من النبي والمتنبئ ، أي الخلاف في وظيفة الرسول ووظيفة الكاهن . ذلك أنه لو نظر إلى ماهية النصوص بعيداً عن سلطة المقدس ، لوجدنا أن التماثل في المضامين والأساليب لا يفضي إلى نوع من التعارض الحقيقي ، ويرجح أن ظروفاً واقعية وتاريخية أوجدت ذلك التعارض ، وفرضت نوعاً من التناقض بينهما .

لقد ظهرت فئة تدعي التنبؤ ومعرفة المغيبات في العصر الجاهلي (35) ، ومن الواضح أن ممارسة التنبؤ قد ازدهرت في تلك الحقبة ، وكان اهتمام تلك الفئة ينصب على الإيهام بامتلاك قوة خارقة تمكنهم من استكناه خفايا المستقبل ، وكشف الغيوب وتأويل الرؤيا ، وكان يعبر عن تلك القوة الغامضة بأساليب خاصة موحية يترك للاحتمالات أن تفعل فعلها في نفس المتلقي ، فقوة العبارة والتمدد الدلالي في سياقاتها ، وحشدها بالمثل أو العبرة ، أو شحنها باللمحة الاعتبارية المحيرة ، وكل ذلك ميز نثر الكهان بخصائص تميزه عن غيره ، وإن كانت لا تقتصر عليه . ولعل اظهر تلك الخصائص : قصر العبارة ، والتزام التقفية ، وتساوي الفواصل ، وإيراد العبارات المبهمة المعماة ، وتشكيل الجمل الغامضة ، الأمر الذي يمنح

copy from www.bulletin.apriu.edu.ly

المستمع إمكانية التشعب في تأويلها بما لا يوقع الكاهن في نوع من الحرج (36) وكانوا يمثلون سلطة دينية واجتماعية ، ويعتقد على نطاق واسع إن لكل كاهن رئياً من الجن يأتيه بخبر السماء ، ولهذا كان الكهان يعتمدون عليهم في مهام أمورهم كالتحاكم إليهم للفصل في الخصومات والمفاخرات والمنافرات ، ولاستخبارهم عما أبهم عليهم كضياع مال أو متاع ، أو عند حدوث ريبة (37) والإدعاء بوجود قوة خارجية تزود بعض الكهان والشعراء والمتألهين بما يحتاجونه من معرفة أمر ضارب في مظاهر الثقافة الجاهلية . وهو مما تحتشد به عموماً الثقافات الشفاهية التي تمنح بعض الأفراد قوى سحرية لخرق نواميس الطبيعة والإتيان بأخبار في منأىً عن طرق المعرفة الشائعة . ولما كان الكهان والشعراء والمتنبؤن يعبرون عن تأملاتهم بصيغ خاصة ومتميزة أدبياً وإيقاعياً ، فُسر الأمر على أنه نوع من الإيهام أو الإيحاء . وفي كل الأحوال ، فإن المناخ الديني ، والعنصر التنبؤي ، أهم ما ينطوي عليه نثر الكهان ، وبخاصة تلك الأجزاء المنسوبة إلى كهان لهم شأنهم في العصر الجاهلي مثل : شق أنمار وسطيح الذئبي وطريفة الكاهنة والمأمور الحارثي وفاطمة الخثعمية وغيرها . ويصعب أن ينظر إلى هذه المدونات على أنها معبرة في أصلها عن الموضوعات التي يفترض أنها دارت حولها ، فالإضافات التي عرضت لها بسبب المشافهة وتغير البنيات الثقافية ، وجدت طريقها إلى صلب هذه النصوص وكيفتها طبقاً للموجهات الأساسية التي وراء روايتها .

3-6 الأمثـــال

يعرف المثل بأنه : قول محكي سائر يقصد منه تشبيه حال الذي حكى بحال الذي قيل لأجله ، وحسب النظام لابد أن تتوفر فيه عناصر أربعة لا تجتمع في غيره من ضروب القول ، وهي : إيجاز اللفظ ، إصابة المعنى ، جودة التشبيه ، حسن الكناية (38) ويغلب أن الأمثال كانت شائعة في العصر الجاهلي ، وأنها كانت وسائل لتجميع التجارب الواقعية والتأملات الاعتبارية ، وقد انصرف إليها

copy from www.bulletin.zu.edu.ly

نخبة من الكتاب العرب القدماء يبحثون في مصادرها وأصولها ومنهم : أبو عبيد ، والمفضل بن سلمة الضبي ، أبو هلال العسكري ، حمزة الاصبهاني ، والميداني ، والزمخشري ... إلخ وخصها بكتب كبيرة ويذهب القلقشندي إلى أن الأمثال لكونها مختصرة فإنها تورد للدلالة على أمور كلية مبسوطة ، وليس في كلام العرب أوجز منها ولما كانت كالرموز والإشارة التي يلوح بها على المعاني تلويحاً ، صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصاراً (39) .

جرى تصنيف متعدد للأمثال القديمة تبعاً لوضوح المقصد أو غموضه حيناً ، وتبعاً لحقيقة الواقعة التي قيل فيها المثل أو رمزيتها حيناً آخر . وضمن المستوى الأول قسم المثل على قسمين : الأول . قريب الفهم بظهور معناه ، وكثرة دورانه بين الناس ، مثل قولهم ((عند الصباح يحمد القوم السري)) . وهو مثل يضرب للترغيب في السير ليلاً والحث عليه ، والثاني بعيد من الفهم لقلة دورانه بين الناس ، كقولهم ((إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر)) . وهو يضرب لمن ينكر الأمر ظاهراً عناداً . والحكاية التفسيرية التي تؤطّر المثل تقول أن بني ثعلبة بن سعد بن ضبة في الجاهلية ، تراهنوا على الشمس ، فقالت طائفة : تطلع الشمس والقمر يرى ، وقالت طائفة : يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس . فتراضوا برجل جعلوه حكماً ، فقال واحد منهم . إن قومي يبغون علي ، فقال الحكم ((إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر)) . وهذا المثل لو أخذناه على حقيقته من غير نظر إلى القرائن المنوطة به ، والأسباب التي قيل من أجلها ، لا يعطي من المعنى ما أعطاه المثل . بل ما كان يفهم من هذا القول معنى يفيد ، لأن البغي هو الظلم ، والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحداً (40) .

ليس ثمة دليل يثبت انبثاق المثل عن الحكاية التفسيرية المرافقة له ، ومن المحتمل أن تلك الحكايات تتغير تبعاً لتغير البنيات الثقافية بما لا يتعارض مع دلالة المثل . ويشمل التغير الأسماء والأحداث والأزمنة و الأمكنة ، وفي بعض الحيان تلفّق قصص تفسيرية لا علاقة لها بالمثل (41) وبما أن المثل صيغة شفاهية الأصل

copy from www.bulletin.uprizu.edu.ly

فالتطور والتغير والتكيفّ مع البيئات التي تتداوله أمور طبيعية تلازمه . وفي كل مرة يظهر فيها المثل بناء على مخاض عملي واقعي أو رمزي ، فإن الغاية الاعتبارية يصعب إدراج المثل بوصفه نوعاً أدبياً نثرياً طبقاً للمعايير التي تحدد الأنواع الأدبية . فالأنواع النثرية تكشف عن خصائصها الخطابية حينما تتفاعل صيغتها الأسلوبية والدلالية في نظام لغوي متواصل ، وهو أمر لا يتوفر في المثل لإيجازه البالغ واقتصاده اللفظي الظاهر . وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنه لا يمكن عدا الأمثال أدباً يعول عليه ، لأنه جمل مقتضبة لا تنشئ في ذاتها أدبا صحيحاً (42) الأمر الذي يعمق التحفظ القائم حول كونها نصوصاً نثرية أدبية فحصها ومعاينتها بوسائل البحث الأدبي الخاص بدراسة النصوص الأدبية .

4-6 الوصـايـا

الوصية تعبير نثري مخصوص يوجه غالباً إلى فرد بعينه أو عدة أفراد ، وهو يختلف عن الخطابة في أن الأخيرة توجه إلى عموم الناس ، وتلقى في مناسبات عامة . وتمثل الوصية خلاصة متميزة لتجربة ذاتية عميقة تقدم إلى الأقربين كالأبناء والبنات وغيرهم . وتتصف بالوضوح والمباشرة والدقة ، والنزعة والأخلاقية الاعتبارية الهادفة إلى إرساء مقاصد تربوية وتعليمية .

تعددت موضوعات الوصايا وتنوعت ، فبعضها يحث على الطاعة وبعضها عدا الإخلاص وبعضها علي الصدق والتضحية والكرم والشجاعة واللين وإلى غير ذلك من المثل والقيم الشائعة آنذاك . وتستعين الوصية بالسجع المنظم الهادي الذي يشبع الدلالات بإيقاعات متتالية تميل إلى نوع من السكينة والهدوء ، كما نلمس ذلك في وصية ذي الإصبع العدواني المشهورة لابنه لحظة احتضاره قائلاً ((ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وأبسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك ، وأكرم صغارهم ، كما تكرم كبارهم ، ويكبر على مودتك صغارهم ، وأسمح بمالك ، وأحسم حريمك ، وأعزز جارك ، وأعن من

copy from www.bulletin./abrlit.edu.ly

استعان بك ، واكرم ضيفك ، وأسرع النهضة في الصريخ ، فإن لك أجلاً لا يعدوك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً ، فبذلك يتم سؤددك)) (43)

7- خاتمـــة

كشفت لنا جملة المعطيات التي وقفنا عليها ، سواء ما كان له علاقة بالنثر الجاهلي مباشرة ، أو ما كان له علاقة بالموجهات الخارجية المؤثرة في رؤيته وتدوينه ، عمق الإكراهات التي تعرض لها ذلك النثر وبخاصة أصوله الشفهية التي نكاد نجهل طبيعتها وخصائصها ، ذلك أن المدونات المتأخرة ، لم تقيد إلاّ أخر صورة من مشهد طويل متسلسل لا نعرف على وجه الدقة تطوراته الداخلية . وليس لنا إلاّ وضع ذلك النثر تحت النظر العقلي المجرد الذي ينظر إلى الوقائع من خلال وضعها التاريخي ، لنخلص إلى أن النُبذ والشذرات المتبقية من النثر الجاهلي ، إنما هي بقايا نصوص شفهية طمست لأسباب كثيرة . وإن ذلك النثر قد عرف ازدهاراً ، وإن الانعطاف التاريخي الذي مثله ظهور الإسلام ، قد أفضى إلى إقصاء الجانب الأساسي منه ، لأنه كان يستثمر خطابياً العقائد الجاهلية ويعبر عنها . أما الأجزاء المتبقية منه ، فإنها تمثل جانباً منه امتثل لضغوط الدين ، فكيف طبقاً لحاجاته أو أنه انطوى على مواقف تنبؤية مباشرة كانت في التحليل الأخير تندرج في خدمة الرسالة الدينية . وكل هذا يعطل أمر البحث في أنساب النثر الجاهلي إلاّ إذا وضع في الاعتبار أمر البحث في الخواص الفنية والموضوعية للنثر القرآني والنبوي باعتبارهما صورة مما كان شائعاً من تعبير نثري آنذاك . ومع أن هذا الاختيار قد يصطدم بعقبة كبيرة وهي درجة الحرج التي يسببها البحث في القرآن بعيداً عن هيمنة المقدس ، وفي معزل عن النظرة التبجيلية المعروفة والمتوارثة . فإنه بدون حل هذه الإشكالية تبقى التوصلات هامشية ، لا تفلح في إضاءة المناطق المعتمة في تاريخ النثر العربي القديم . ذلك أن التقلبات المتعاقبة في البنية الثقافية قد أفضت إلى تعارضات حاسمة ، كان من نتيجتها إما إقصاء معظم مظاهر

copy.from www.bulletin.7aprilu.edu.ly

التعبير النثري القديم ، أو الاستحواذ عليه في نصوص تحصنت وراء قوة لاهوتية . وقد جرى فيما بعد ، مع ظهور المدونات الكلامية والأدبية ، إعادة اعتبار لمأثورات الماضي بما يوافق الرؤيا الدينية وبما يقوي أسسها وركائزها ، وكل ذلك أدى إلى انكسار شديد في زاوية الرؤيا لأن التاريخ بكل معطياته الثقافية قد مر من ((وسط جاهلي كثيف)) إلى ((وسط إسلامي شفاف)) . فكانت ((درجة الانكسار)) كبيرة بين الوسطين ، الأمر الذي أدى إلى إعادة إنتاج المأثورات القديمة أو إقصائها بما يوافق الوسط الجديد الذي اقتضت رؤيته إلى العالم أن ينتخب ما يمتثل لتلك الرؤية ، ويستبعد ما يؤثر سلباً فيها . ومن الواضح أن هذه التعارضات التاريخية – الدينية قد مست مظاهر التعبير الأدبي الجاهلي ، والنثري منه خاصة لأنه كان حاملاً لمنظومة قيمية مخالفة ، جاءت الرسالة الدينية لاستبعادها ، والإجهاز عليها فأقصى الحامل كما أقصى المحمول .

هوامش البحث

1- ابن عبد البر النمري ، جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله ، القاهرة ،2: 23

2- أبو طالب المكي ، قوت القلوب ، القاهرة 1 : 194 وجامع بيان العلم 2: 40

3- أبن الجوزي ، تلبيس إبليس ، تحقيق محمد منير الدمشقي ، القاهرة ص 126 وجامع بيان العلم 2 : 40

4- أبن الجوزي ، كتاب القصاص والمذكرين ، تحقيق مارلين سوارتر ، بيروت ص11 ، وتلبيس إبليس ص23 ، وأبن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت 2: 9 .، وأبو منصور الثعالبي ، التمثيل والمحاضرة ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، القاهرة ص 170 . أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي ، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي 1: 3 الغزالي ، إحياء علوم الدين ، القاهرة 2 : 337 وقوت القلوب 2 : 47 . وأنظر مادة ((قصص)) في المعاجم العربية .

5- أبو الحسن الرماني ، وأبو سليمان الخطابي ، وعبد القاهر الجرجاني ، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خاف الله ومحمد زغلول سلام ، القاهرة ص 23 ، 25 ، والسيوطي الإتقان في علوم القرآن ، القاهرة 2 :118 والباقلاني ، التمهيد في الرد على الملحدة

copy from www.bulletin.7apriu.edu.ly

والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة ، تحقيق محمود الخضيري وعبدالهادي أبوريدة ، القاهرة ص 29 .

6- أبومنصور التميمي ، أصول الدين ، استانبول ، ص 183 .
7- م. ن . ص 184 .
8- فخر الدين الرازي ، المباحث الشرقية في علم الإلهيات والطبيعات ، طهران 2:523 .
9- الباقلاني ، اعجاز القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهرة ص 34
10- السكاكي ، مفتاح العلم ، تحقيق أكرم عثمان ، بغداد ، ص 766 .
11- ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت 1 : 9
12- اسخاوي الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحيق روزنتال ، بغداد ص 49 .
13- ابن هشام ، السيرة النبوية ، بيروت 2 :7 . والذهبي ، سير أعلام النبلاء ، بيروت ص 229 . والمسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت 4 : 134 . وابن الأثير ، الكامل في التاريخ 2 :49 . وابن ابي اصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، بيروت 2 : 19 . والنويري ، نهاية الارب في فنون الأدب ، القاهرة 16 : 220 .
14- الكامل في التاريخ 2 : 49 وعيون الأنباء 2 : 29 .
15- نهاية الارب 16 : 220
16- السيرة النبوية 2 : 208 وابن سعد ، الطبقات الكبير ، تحقيق ادوارد سخو ، ليدن ، 2 : 2-8 . الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة 2 : 437 . وابن الأثير ، الكامل في التاريخ 2 : 91 . والمقدسي ، البدء والتاريخ ، تحقيق كلمان هوار ، باريس 4 : 192 . الطبرسي ، مجمع البيان في تفسير القرآن ، تحقيق هاشم المحلاتي، بيروت 4 : 666 .
17- فيما يخص موقف الرسول من الشعراء والسحرة ونحيل على : نهاية الارب 16 : 193 . وابن رشيق ، العمدة 1 : 23 وابو الفرج الاصفهاني ، الأغاني 17 : 92 وابن قتيبة ، الشعر والشعراء ص 84 والكلاعي ، أحكام صنعة الكلام ص 36 .
18- ابن الأثير أسد الغابة في معرفة الصحابة ، تحقيق محمد إبراهيم البناء ومحمد أحمد عاشور ، القاهرة 5 : 318 . النووي ، تهذيب الأسماء واللغات 1 : 130
19- النووي ، شرح صحيح مسلم ، القاهرة 18 :78-83 . انظر ابن كثير ، نهاية البداية في الفتن والملاحم ، تحقيق محمد أبو عيبة ، الرياض 1 : 94 –96 ، وابن عساكر ، التاريخ الكبير ، ترتيب عبد القادر افندي 3: 343 . والمسعودي ، أخبار الزمان ، بيروت ص 122 والبدء والتاريخ 2 : 192
20- للتفصيل ينظر كتابنا ((السردية العربية)) ص 126-130
21- الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ، 1: 287
22- ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد 1: 20
23- النهشلي ، الممتع في علم الشعر وآدابه ، تحقيق المنجي الكعبي ، تونس ، ص 11و24 .

copy from www.bulletin.7apru.edu.ly

24- تسند الميثولوجيا الدينية شعراً لأدام قاله بالعربية ، وقد أسندت رواية ذلك الشعر إلى يعرب بن قحطان ، إثر ضياع معظمه بسبب الطوفان ، وحسب المتخيل الأسطوري فإن يعرب بن قحطان عثر أول الأمر على مقطوعة رثائية لأدم ، فلما تمعن فيها وجد أنها سجع ، فلما وزنها استقامت شعراً دون أن يزيد أو ينقص فيها شيئاً ، فرآه قومه ، فاجمعوا على نظم الشعر الموزون بألفاظ فصيحة . انظر حول ذلك : البستاني ، دائرة المعارف ، بيروت 1 : 474

25- كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبدالحليم النجار ، القاهرة 1: 51

26- أورد ديفين ستيوارت ، مجلة فصول ع 3 لسنة 1993 ص 8 و 14 . وقد اشار الباقلاني إلى أن السجع غير ممتنع عند الجاهلين (بل هو عادتهم) وهو من (الأساليب المعتادة عندهم ، المألوفة لديهم) أعجاز القرآن ص 60

27- أبوهلال العسكري ، الصناعتين ، تحقيق علي البجاوي ، ومحمد أبوالفضل إبراهيم ، القاهرة ص 267 .

28- قدامة بن جعفر ، نقد النثر ، ص107 . وجدير بالذكر أن نسبة هذا الكتاب قد صححت من قبل د. أحمد مطلوب . وتبين أن لأسحق بن إبراهيم الكاتب وهو بعنوان : البرهان في وجوه البيان . وقد تعذر علينا الحصول عليه .

29- الصناعتين ص267

30- صبح الأعشى 2 :304

31- الصناعتين ص 266 – 267

32- محمد حسن درويش ، تاريخ الأدب العربي في الجاهلية وصدر الإسلام ، القاهرة ص 65

33- على بن خلف الكاتب ، مواد البيان ، تحقيق حسين عبداللطيف ، طرابلس ص 61

34- م.ن.1: 256

35- شوقي ضيف ن الفن مذاهبه في النثر العربي ، القاهرة ص38 وقد بحث محمد عابد الجابري تفصيلاً في هذا الموضوع، العقل السياسي العربي ص197-228.

36- جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت 8: 745 .

37- درويش ، تاريخ الدب العربي في الجاهلية وصدر الإسلام ص88 .

38- أورده درويش ص53 .

39- صبح الأعشى 1: 347 .

40- م.ن1: 349 .

41- عبدالمجيد عابدين ، الأمثال في النثر العربي القديم ، الاسكندرية ص 72 .

42- بطرس البستاني ، أدب العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، بيروت ص256 .

43- أوردها عفت الشرقاوي ، دروس ونصوص في قضايا الأدب ، بيروت ، ص162 .

copy from www.bulletin.zaptit.edu.ly